طبعات رسالَتْي القَسْطلاّني حول المخدِّرات

د. لطف الله قاري(*)

عرف الإنسان النباتات المخدِّرة منذ القِدم. وقد ذكرها الأطباء في حضارة الإسلام، وذكروا استعمالها بكميات محددة لتسكين الألم أو التخدير. لكن إساءة استعمالها للحصول على النشوة -ومن ثم الإدمان عليها- لم يُعرفا في بلاد العرب والمسلمين قبل أواخر القرن السادس وأوائل السابع الهجريين، أي نحو ٦٠٠هـ. ولو أن هناك نصوصًا تاريخية تثبت أن البعض في بلدان محددة استعملها للنشوة والإدمان في القرن الخامس (٤٠١ - ٥٠٠هـ)، فإن تلك الاستعمالات المبكرة قبل ٦٠٠هـ ظلت محدودة الانتشار.

وحالما أدرك علماء الإسلام ضرر انتشار ظاهرة المخدرات تصدوا لها بمؤلَّفات تفيد بضررها، وتُبيّن حرمتها في شريعة الإسلام. ومن أوائل مَن كتب حولها الطبيب الصيدلي العَشّاب ابن البيطار، حيث يقول في مادة «قنـــب» في كتابه «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية»: «ومن القُنَّب نوع ثالث يقال له القُنَّب الهندي، ولم أرَه بغير مصر، ويُزرع في البساتين، ويسمّى بالحشيشة عندهم أيضًا، وهو يُسْكِر جدًّا إذا تناول منه إنسان يسيرًا قدر درهم أو درهمين، حتى إنَّ مَن أكثر منه يُخرجه إلى حد الرعونة. وقد استعمله قوم فاختلّت عقولهم، وأدى بهم الحال إلى الجنون وربما قَتَلتْ. ورأيت الفقراء يستعملونها على أنحاء شتى، فمنهم مَن يطبخ الورق طبخًا بليغًا، ويدعكه باليد دعكًا جيدًا، حتى يتعجّن ويعمله أقراصًا، ومنهم مَن يجفّفه قليلًا ثم يحمّصه ويَفْرُكه باليد، ويخلط به قليل سمسم مقشور وسكر، ويَسْتَفُّه ويُطيل مضغه فإنهم يَطْرَبون عليه ويفرحون كثيرًا، وربما يُسْكِرهم، ويخرجون به إلى الجنون أو قريبًا منه كما قدمنا، وهذا ما شاهدته من

(*) مستشار وعضو إدارة «هيئة تاريخ العلوم والتكنولوجيا في المجتمعات الإسلامية» التابعة للاتحاد الدولي لتاريخ العلوم، للفترة ٢٠١٣-٢٠١٧.

فعلها، وإذا خيف من الإكثار منه فليبادر بالقيء بسمن وماء سخن، حتى تُنقّى منه المعدة، وشراب الحُمّاض لهم في غاية النفع».

وألّف أبو عبد الله محمد بن سليمان الشاطبي (٥٨٥ - ٦٧٢هـ/ ١١٨٩ - ١٢٧٤م)، رسالة بعنوان «زهر العريش في تحريم الحشيش»، مفقودة لم تصل إلينا[١]. وفيما بعد استعمل الزركشي (ت ٧٩٤هـ) العنوان نفسه لتأليف رسالة حول الموضوع.

وكتب القرافي (ت ٦٨٤هـ) نبذة عن المخدرات في كتابه «الفروق». وهي بعنوان «الفَرْقُ الأربعون بين قاعدة المُسْكِرات وقاعدة المُرْقِدات وقاعدة المُفْسِدات»[٢].

وكتب ابن غانم المقدسي (ت ٦٧٨هـ/ ١٢٨٠م) نبذة بعنوان: «مجلس في ذم الحشيشة». نشرها كامارا Cámara في كتاب ترجمةُ عنوانه الإسباني بالعربية هو: «ثلاث رسائل عربية حول القُنّب الهندي»[٣].

كانت هذه هي المؤلفات التي سبقت أو تزامنت مع تأليف قطب الدين أبي بكر محمد بن أحمد القَسْطلّاني (٦١٤ - ٦٨٦هـ/ ١٢٨٧م) رسالتيه: «تكريم المعيشة بتحريم الحشيشة»، و«تتميم التكريم لما في الحشيشة من التحريم» اللتين نتحدث عن طبعاتهما هنا.

وجاءت بعدهما كتابات أخرى، منها لابن تيمية (٦٦١ - ٧٢٨هـ/ ١٢٦٣ - ١٣٢٨م) في فتاويه، وفي رسالة خاصة بالموضوع لم تصل إلينا. ومنها ما كتبه الذهبي (٦٤٣ - ٧٤٨هـ/ ١٢٧٤ - ١٣٤٨م) في كتاب الكبائر، ورسالة «زهر العريش في تحريم الحشيش» للزركشي (ت ٧٩٤هـ)، ورسالة «إكرام مَن يعيش بتحريم الخمر والحشيش» للأفقهسي (ت ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م)، وغيرها في القرون التالية.

---

(١) المقرّي، **نفح الطيب**، تحقيق إحسان عباس، بيروت: دار صادر، ١٩٩٧، ج٢: ١٤٠-١٤١؛ إسماعيل بن محمد أمين البابانى البغدادي، **إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون**، تصحيح وتعليق محمد شرف الدين يالتقايا، ورفعت بيلگه الكليسي، مج. ١ (إستانبول: وكالة المعارف، ١٩٥١): ٦١٨؛ كوركيس عواد، **مصادر النباتات الطبية عند العرب**، بغداد: المجمع العلمي العراقي، ١٩٨٦: ١٢.

(٢) القرافي، أحمد بن إدريس، **كتاب الفروق: أنوار البروق في أنواء الفروق**، تحقيق محمد أحمد سراج وعلي جمعة، القاهرة: دار السلام، ٢٠٠١، ج١: ٣٦٣-٣٦٥.

(٣) Cámara, Indalecio Lozano. *Tres tratados arabes sobre el cannabis indica*, (Madrid: Agencia Española de Cooperación Internacional, 1990), pp. 15-44. النص العربي بين الصفحات ٢٥-٣٢.

ألَّف القسطلاني رسالته الأولى «تكريم المعيشة بتحريم الحشيشة». فردّ عليه الحسن بن محمد العكبري (ت حوالي ٦٩٠هـ) برسالة عنوانها «السوانح الأدبية في مدائح القنبية». وهنا ألّف القسطلاني رسالته الأخرى بعنوان «تتميم التكريم لما في الحشيشة من التحريم»، ردًّا على العكبري.

طبعات رسالة «تكريم المعيشة في تحريم الحشيشة»

في عام ١٩٩١م، أتمّ الدكتور عبد العزيز بن عبد الله الحميدان النجدي (١٩٥١ - ٢٠١١م) -وهو من البحرين- رسالة الدكتوراه، في جامعة الزيتونة بتونس، في ٤٠٤ صفحة. وهي بعنوان «قطب الدين القسطلاني وكتاباه تكريم المعيشة بتحريم الحشيشة وتتميم التكريم لما في الحشيشة من التحريم: دراسة و تحقيق».

وفي سنة ١٩٩٣م، صدرت رسالة الدكتوراه المذكورة في كتاب بالقاهرة، عنوانه «كتابا تكريم المعيشة بتحريم الحشيشة وتتميم التكريم لما في الحشيشة من التحريم، للإمام قطب الدين القسطلاني» دون ذكر الناشر، إذ كان على نفقة المحقق، في ٣٢٠ صفحة.

وكذلك في سنة ١٩٩٣م أنجز كامار Indalecio Lozano Cámara رسالته للدكتوراه. وترجمة عنوانها الإسباني بالعربية هو: «دراسات ووثائق حول تاريخ القُنَّب والحشيش في الإسلام خلال العصور الوسطى»[٤]. وتحتوي على النص العربي -مع ترجمة ودراسة بالإسبانية- للنصوص الآتية: (١) تكريم المعيشة للقسطلاني، (٢) فقرات من رسالة «السوانح الأدبية في مدائح القنبية» للعكبري، نقلًا عن المقريزي، (٣) تتميم التكريم للقسطلاني، (٤) مختارات من كتاب «راحة الأرواح في الحشيش والراح» (تأليف تقي الدين عبد الله بن عبد الله بن محمد البدري، ت حوالي ٨٥٠هـ)، وفيها نُقولٌ من رسالة «السوانح الأدبية» للعكبري.

(٤) Cámara, Indalecio Lozano. Estudios y documentos sobre la historia del cáñamo y del hachís en el islam medieval, (Tesis Doctoral, Universidad de Granada, 1993).

وفي سنة ٢٠٠٥م نشر كامارا نفسُه نصَّ رسالة «تكريم المعيشة» في مجلة القنطرة، مع دراسة وترجمة بالإسبانية(٥).

ثم طُبعت رسالتا القسطلاني مؤخرًا (٢٠١٩م) في الكويت، في طبعة نؤجِّل الحديث عنها إلى ما بعد استعراض طبعات الرسالة الأخرى.

طبعات رسالة «تتميم التكريم»

في عام ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، نـُشِرت رسالة «تتميم التكريم» بتحقيق الدكتور ياسين بن ناصر الخطيب، نَشْرُ المحقِّق، في مكة المكرمة.

ونـُشِرت في نفس السنة كذلك ضمن رسالة الدكتوراه السابق ذكرها للحميدان النجدي. وكذلك ضمن الكتاب الصادر سنة ١٩٩٣م في القاهرة، السابق ذكره، للحميدان النجدي.

ونـُشِرت في سنة ١٩٩٣م ضمن رسالة الدكتوراه التي ألّـفها كامارا، وقد سبق ذكرها.

وفي سنة ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م نـُشِرت الرسالة في «مجلة البحوث الفقهية المعاصرة»، بتحقيق الدكتور عبد العزيز بن محمد الزيد(٦).

طبعة الكويت

صدرت مؤخرًا (١٤٤١هـ/ ٢٠١٩م) طبعة جديدة لرسالتي «تكريم المعيشة» و«تتميم التكريم»، ناشرها «مركز المخطوطات والتراث والوثائق» بالكويت. وهو مؤسسة خيرية أسسها ويرأسها رجل كريم فاضل، يجذب كل مَن يتعامل معه بحسن أخلاقه وكريم صفاته، وهو الدكتور محمد بن إبراهيم الشيباني، وهو غير محقِّق هذه الطبعة.

(٥) Cámara, Indalecio Lozano. "Edición crítica del 'Kitab takrim al-ma 'isa bi-tahrim al-hasisa' de Qutb al-Din al-Qastallani", Al-qantara: Revista de estudios árabes, vol. 26, Fasc. 2, 2005, págs. 337-356..

(٦) العدد ٢٠، السنة الخامسة، رجب - رمضان ١٤١٤هـ(يناير- مارس ١٩٩٤م): ٨٢-١٦٢.

لكن هناك ملاحظات على هذه الطبعة نوجزها في الآتي:

١) كما رأينا في الاستعراض السابق فإن رسالة «تكريم المعيشة» طُبعت في الماضي ما لا يقل عن أربع طبعات. ورسالة «تتميم التكريم» طُبعت قبل طبعة الكويت ما لا يقل عن خمس طبعات. ولا يَذكر المحقِّق أيًّا من هذه الطبعات، سوى قوله إن الدكتور عبد العزيز الحميدان النجدي قام بتحقيقهما في رسالة دكتوراه، وإن رسالة الدكتوراه هذه -حسب قوله- ما تزال مخطوطة لم تُنشر بعد.

٢) رسالة الدكتوراه للحميدان النجدي -رحمه الله- كما رأينا مطبوعة طباعة جيدة في كتاب. والواضح أن المحقِّق لم يطلع عليه، وإلا لكان استفاد منه كثيرًا، فهو عمل جيد خدم النص المحقَّق، وقدِّم له بدراسة مستفيضة عن المؤلف وكتابه.

٣) يقول المؤلف (ص ٢٥) عن كتاب «ثلاث رسائل عربية حول القُنّب الهندي» بالإسبانية -السابق ذكره-: إنه يحتوي على مجلس في ذم الحشيشة لابن غانم المقدسي، وتحليل لرسالتي القسطلاني (التكريم والتتميم)، وتحقيق نص «زهر العريش في تحريم الحشيش» ونظمه.

والواقع أن محتويات الكتاب الإسباني مختلفة؛ فهو لا يحتوي على تحليل لرسالتي القسطلاني. ومن محتوياته التي لم يذكرها، دراسة وترجمة بالإسبانية لرسالة «قمع الواشين في ذم البرّاشين» لابن الجزار. فهذا دليل على أن المحقق لم يطلع أصلًا على الكتاب الإسباني.

٤) الكتاب فيه مخالفات عديدة لقواعد التحقيق، بخاصة تحقيق الكتب التي بها مواد طبية ونباتات؛ فلم يقم بشرح أية مادة من تلك المواد شرحًا عصريًّا، وكان المطلوبُ شرحَها باختصار شرحًا يخاطب به المحقق أبناء عصرنا، بذكر الاسم العلمي للنبات، وتعريفه بناءً على المراجع الحديثة، وليس تعريفات منقولة من كتب تراثية، مثل «تاج العروس» وغيره.

٥) الكشافات: أي ترتيب المواد وأسماء الأعلام وغيرها على الحروف الهجائية في آخر الكتاب المحقَّق، وهي من متطلبات التحقيق، كما نصت عليه مختلف الكتب المعتمدة في قواعد

التحقيق. وهذا الكتاب يحتوي على رسالتين صغيرتين، لا يتطلب إعدادُ كشافات لهما جهدًا كبيرًا. لكن المحقِّق لم يلتزم بهذا.

رحم الله الشيخ حمد الجاسر؛ لم يكن يعمل في جامعة، ولم ينل أية شهادة جامعية، لكنه في تحقيقاته الجيدة لم يدع كتابًا دون أن يُلحق به الكشافات.

٦) المحقق يسرد في آخر الكتاب قائمة طويلة من المصادر والمراجع التي لم يرجع إليها ولم يستخدمها. ويستطيع القارئ مقارنة عناوينها مع الإحالات التي في حواشي النص ومقدمة التحقيق، ليجد أن أكثر ما ورد في تلك القائمة الطويلة لم يرجع إليه المحقق.

خاتمة

كتب الكثيرون عن التحقيقات السيئة التي تسيء إلى التراث، بدلًا من إحيائه وتقديمه حسب المناهج المتفق عليها، أي مناهج تحقيق النص التراثي عمومًا، وليس بالضرورة النص العلمي. ولا يتوقف هذا السيل من الإنتاج الرديء في رأيي المتواضع إلا بحلول عملية، تتبناها جميع الدول العربية. ومن هذه الحلول أن تتبنى المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم التابعة لجامعة الدول العربية نظام جودةٍ لتحقيق النصوص التراثية. فيتفق وزراء التعليم والثقافة العرب على إنشاء مجامع علمية في كل دولهم، يكون من مهامها إعطاء شهادة جودة لكل كتاب تراثي يُطبَع محققًا. فتكون علامةُ الجودة المعتمَدة بارزةً على كل طبعة. وبذلك يختار القارئ الكتاب الذي عليه علامة الجودة، ويترك ما سواه.

وحتى يتحقق ذلك، فإنني أقترح أن يَكثُر نشر مراجعات نقدية للكتب سيئة التحقيق، يكتبها الأكْفَاء المتمكنون، وبخاصة المعروفون منهم. وأن تُخصَّص في كل صحيفة ومجلة صفحاتٌ لمراجعات الكتب. فيَعلم كلُّ مَن يتصدى للتحقيق أن النقد له بالمرصاد. فيُتقن عمله، أو يكفّ عن إساءته إلى التراث. هذا ما يحصل في البلدان المتقدمة؛ كل كتاب يصدر هو عرضة للمراجعة والنقد، وتبيان سلبياته وإيجابياته.

ولعل الأساتذة المتمرسين في التحقيق يطرحون حلولًا أخرى توقف الإساءة الحالية المستمرة إلى التراث.